مقدّمــة:

إنّ المتأمل في القرآن الكريم وتعاليم الإسلام، يجد أن الله **Y** قد شاءت إرادته أن يُسيّر الكون وما عليه من مخلوقات وفق سُنَنٍ لا تتبدّل، ونواميس لا تتحوّل، قال تعالى: **[فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبۡدِيلًا] [فاطر:43]**، وعلى أساس هذه السُّنن تتصرّف الإرادة الإنسانيّة، وتبعًا للحريّة التّي مُنحت للإنسان، فله أن يُقرّر الإيمان أو غيره، وأنّ مصيره في الدّنيا والآخرة بيده، وهو الذّي يصنعه. وهو معنى قوله تعالى: **[إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ] [الرعد:11].**

وفي القرآن الكريم فيضٌ من الآيات التّي حثّت العقل البشريّ على اكتشاف أهميّة السّنن الإلهيّة في الآفاق والأنفس، ثمّ العمل بمقتضاها، وذلك للقيام بواجب الاستخلاف والعمران الحضاريّ في الأرض، ومراعاة لمراد الله تعالى: [يُرِيدُ اللَّهَ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الذِّينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ] **[النّساء:26].**

إنَّ البحثَ في فقه السّنن الإلهيّة من جهةٍ، وفي سيرة الإمام ابن باديس- رحمه الله -من جهةٍ أخرى، هو بحثٌ يتطلَّب استجماعًا لمدارك العقل، وعوالم الرُّوح، ذلك أنَّ الوعي بالسُّنن الإلهيّة يحثُّ الباحثَ فيه أن يكون ذا عقلٍ حصيفٍ، غيرَ وقَّافٍ عند ظواهر نصوص الوحي ومَبانِيها، بل لا بدّ أن يكون غوَّاصًا في أعماقها ومَعانيها، وغيرَ قاصرِ الفهم والإدراك على أجزاءٍ متناثرةٍ ومفكَّكةٍ منها، مُهملًا لِنَسيج غاياتها وأسرارها، وأنْ يكون عقلًا جامعًا للتصوُّر الكامل لهذه النّصوص. كيف لَا؟ وفقهُ السّنن الإلهيّة أمرٌ ضروريٌّ، لا غنًى عنه لمن أراد أن يكون استخلافه في الأرض استخلافًا حضاريًّا رشيدًا، مُجتنبًا لأسباب التّخلّف والضّعف، ومُبتعدًا عن دواعي التّأخّر والهوان.

أمَّا الكلام عن الإمام ابن باديس، رائدِ الإصلاح في الجزائر، بل وعَلَمٌ من أَعلام الإصلاح في العالم الإسلاميّ، فهو كلامٌ ذُو شجون، يحتاجُ إلى حضور روح الباحث إلى جانب عقلهِ، حتىَّ يتحسَّسَ مسيرةَ ابن باديس العطرةَ، ليكتشفَ برفقٍ مواطن التَّوفيق والسَّداد، ويتلمَّسَ ببصيرةٍ مواضع النّجاح والرّشاد، وأسرار ذلك كلّه.

وأمَّا أَن تجمع بين عالَمَيْن: عالَمِ فقهِ السُّنن، وعالَمِ ابنِ باديس، فهو عملٌ بقدر ما فيه من المغامرة والنَّصَب، بقدر ما فيه من المتعة والتَأمُّل والاستكشاف والاسترشاد بنُورَيْنِ؛ نورِ الوعي السُّننيّ فهْمًا وتنظيرًا، ونورِ ابن باديس في وَعْيِه وتطبيقه لهذا الفقه تطبيقًا وتنزيلًا.

الإشكاليّةُ: إنَّ الباحث في آثار هذا الإمام العظيم، ليَجِدُ الوعيَ السُّنيّ حاضِرًا في ذلك الإرث العلميّ والدعويّ الوافر - فهمًا وتنزيلًا -، فما هي رؤيةُ الإمام ابن باديس للسُّنن الإلهيّة؟ وأين تجلّى وعيُهُ السُّنيّ في مشروعه الإصلاحيّ؟ وكيف وظّف هذا الوعيَ السُّنيّ في واقعه؟

الأهميّة: لهذا الموضوع أهميّة بالغة وخطيرة، يمكن إيجازها في الآتي:

1/ أهميّة الوعي بالسّنن الإلهيّة نفسه، ودوره الخطير في الفكر الإسلاميّ.

2/ واقعيّة هذا الموضوع؛ إذ بالإمكان أن نلمس حضوره بكلّ تفاصيله في واقع حياتنا عند تنزيله، إيجابًا أو سلبًا. التزامًا أو إهمالًا. وما ينجم عن ذلك من تحضّرٍ أو تخلّفٍ.

الأهداف: إنّ جملة الأهداف التّي نريد التوصّل إليها من خلال هذه الورقة هي كالآتي:

1/ المساهمةُ في إبراز شخصيَّة الإمام ابن باديس في جانب وعْيِه السُّنيّ.

2/ بيانُ أهميَّة ودور تطبيق الفقه السُّنيّ وتنزيله في واقع الحياة.

3/ كشفُ تجليّات هذا الوعي السُّنيّ في مشروع ابن باديس الإصلاحيّ.

4/ أداءُ خِدمةٍ لتُراث جمعيّة العُلماء المسلمين الجزائريّين، من خلال رئيسِها الأوَّل الإمام عبد الحميد بن باديس.

5/ إبرازُ دور أعْلَام وعُظماء الجزائر، لمَا نلحظُهُ من نسيان لفضَائِلهم، وتنكُّرٍ لِجمِيلهم على الأجيال، وللوُقوفِ ضدَّ مُحاولة إحداث الهوَّة بينهم وبين الجيل الحاضر، والذّي يُراد له أن يتنكَّر لماضيه، وينسلخَ من قِيَمه، وينقطعَ عن جذوره، ولكي لا يستطيع أن يرسم حاضرَه، ولا أن يستشرف مستقبلَه.

المنهـــج:

بحسَب ما تقتضِيه طبيعةُ الموضوع، اتَّبعتُ: المنهجَ الاستقرائيَّ؛ وذلك بتتبُّع النُّصوص المتعلِّقة بالبَّحث، سواءٌ منْها ما تعلَّق بآثار وأقوال الإمام ابن باديس نفسِه، أوْ ما ذَكَره الدَّارسُون لحياتِه والبَّاحثُون في سيرتِه، هذا من جهةٍ. ومن جهةٍ أُخرى، فقد استعَنتُ بالمنهج التَّحليليّ الاستنباطيّ، مُحاولًا في كلّ ذلك أنْ أستخرج كلَّ ما لهُ علاقةٌ بالموضوع، تَبعًا لنوع الدّراسة ومَجالِها. وإلى جانب ذلك اعتمدتُ على المنهج الوصفيّ التَّاريخيّ.

الدّراسات السّابقة:

لقد تتبَّع الدَّارسون لحياة ابن باديس المتعدّدة الجوانب، فنهَلوا من هذا النَّبع العظيم، كلٌّ بحسب اختصاصِه، فهو الإمامُ العالِمُ الفقيهُ، الدَّاعيةُ المصلِحُ، المعلِّمُ المربّي والمرشِدُ، الصَّحفيُّ المتمرّسُ، والسِّياسيُّ المحنَّكُ، فَوصفُوا لنا - مَا أمْكَنهُم - ملامحَ ذكائِه ونُبوغِه، وآياتِ عبقريّتِه. فكانت الدّراسات

كثيرةً، ولكنّها قليلةٌ في هذه النّاحية من حياة الإمام ابن باديس؛ أعني جانب الوعي السُّننيّ. ومن هذه الدّراسات القليلة ما يلي:

الدّراسة الأولى: " السُّنن الكونيّة في تفسير ابن باديس - مجالس التّذكير من كلام الحكيم الخبير- ". لـ : د/ محمّد درّاجي. أستاذ محاضر. كليّة أصول الدّين - جامعة الجزائر -، وهي عبارة عن مقال نُشر في مجلّة كليّة أصول الدّين: «الصّراط»، السَّنة الأولى، العدد الثّاني، ذو الحجّة 1420هـ/مارس 2000م.

وممّا تناوله صاحبُ المقال: اهتمام ابن باديس بالسُّنن الكونيّة في تفسيره، مذكّرًا بنماذج من هذه السُّنن في تفسير ابن باديس (مجالس التّذكير من كلام الحكيم الخبير).

الدّراسة الثّانية: " خصائص تفسير القرآن الكريم عند الإمام ابن باديس ". لـ : د/ عليّ الصلّابي. وهي عبارة عن مقال نُشر على الموقع الإلكترونيّ: " عبد الحميد بن باديس باني النّهضة العلميّة والفكريّة بالجزائر 1889 - 1940 ". بتاريخ: 2019/06/12. وقد اطّلعتُ عليه بتاريخ: 2023/08/29. في: 10 و: 19د.

وقد تناول صاحب المقال جملة من خصائص تفسير القرآن الكريم عند ابن باديس، منها: أنّ التّفسير الباديسيّ هو تفسير علميّ. ولكن من دون الخوض في الجانب السُّننيّ من تفسيره للقرآن الكريم، بل كان التركيز على إشارات إلى الجانب الإعجازيّ بصورة أكثر.

الدّراسة الثّالثة: " معالم الوعي السُّننيّ في المشروع الإصلاحيّ عند عبد الحميد بن باديس ". لـ : ط.د/مصطفى مخلوف. جامعة بانتة1. و: أ.د/بدر الدّين زواقة. جامعة بانتة1. وهي عبارة عن مقال نُشر في مجلّة: **الشّهاب**، المجلّد:09، العدد:01 (2023م)، ص ص511-532. والتّي تصدر عن كليّة العلوم الإسلاميّة - جامعة الوادي - الجزائر.

وقد تناول صاحب الدّراسة ثلاثة مباحث؛ تطرّق في أوّلها إلى بيان مفهوم الوعي السُّننيّ وعلاقته بالإصلاح، وأمّا الثّاني فبيّن فيه معالم السّنن الإلهيّة في فكر ابن باديس، وأمّا الثّالث والأخير فقد تطرّق فيه إلى تجليّات تعامل ابن باديس مع السّنن الإلهيّة وإعمالها في مشروعه الإصلاحيّ.

ولِتقارُبِ هذه الدّراسة مع دراستي، فإنّني أُنوّه إلى أنّني لم أقع عليها إلّا بعد أن شارفتُ - تقريبًا - على نهاية كتابة ورَقتي. فربّما كان هذا من تلاقح الأفكار، وتقارب الخواطر.

الخُطّـة:

تتمثّل خطّة الموضوع في الآتي:

مقدّمة؛ وقد تضمّنت: الإشكاليّة، الأهميّة، الأهداف، المنهج، الدّراسات السّابقة، وأربعة عناصر؛ تتمثّل فيما يلي:

أوّلًا: مفهوم السّنن الإلهيّة والوعي السُّننيّ.

ثانيًا: اهتمام ابن باديس بفقه السّنن الإلهيّة.

ثالثًا: توظيف ابن باديس للوعي السُّنيّ في مشروعه الإصلاحيّ.

رابعًا: نماذج من الوعي السُّنيّ في تفسير ابن باديس للقرآن الكريم.

وأخيرا خاتمة؛ مشتملة لجملةٍ من النّتائج والتّوصيّات.

أوّلًا: مفهوم السُّنن الإلهيّة والوعي السُّنيّ

1- مفهوم السُّنن الإلهيّة:

1- 1- مفهوم السُّنّة:

1- 1- 1- السُّنّة في اللّغة: مُشتقّة من: (سن)، وقد استعملت العرب هذه الكلمة وأرادوا بها عدّة معاني، ولكن سنكتفي منها بما له صلةٌ وثيقةٌ بموضوع بحثنا وهما المعنيان الآتيان:

المعنى الأوّل: كلمة السُّنّة تأتي بمعنى: التّتابع والاطّراد والتّوالي، وجريان الشّيء في سهولةٍ. جاء في: (معجم مقاييس اللّغة)، في مادّة: (سنَّ)، أنّ: " السّين والنّون أصلٌ واحدٌ مطّردٌ، وهو جريان الشّيء وإطّرادهُ في سهولةٍ، والأصل قولهم: سَنَنْتُ الماءَ على وجهي أَسُنُّهُ سَنًّا، إذا أرسلتهُ إرسالًا ".[1] أو: " نفاذُ الشّيء الدّقيق بامتدادٍ لتهيئتِهِ وتسويتِهِ لذلك: كسِنِّ الرُّمحِ تنفُذُ في المطعون به على امتدادها بلا انثناءٍ قويّةً حادّةً ".[2]

المعنى الثّاني: السُّنّةُ هي: الطّريقة والسّيرةُ، جاء في (مختار الصّحاح): " السَّنَنُ الطّريقةُ. يُقالُ: استقام فلانٌ على سَنَنٍ واحدٍ (...) و(السُّنّةُ) السّيرةُ ".[3] وهو المعنى المشهور الذّي عليه أكثر علماء اللّغة، فالسُّنة هي السّيرة محمودةً كانت أو مذمومةً. " وسُنَّةُ رسول الله ﷺ: سِيرتُهُ. قال الهُذليّ:[4]

فلَا تَجْزَعَنْ من سُنَّةٍ أنتَ سِرْتَهَا *** فأوَّلُ راضٍ سُنّةً مَن يسِيرُهَا ".[5]

فهي بمعنى: الطّريق، قال تعالى:﴿**سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا**﴾ [الإسراء:77]. " فالسُّنّةُ أمرٌ أو تصرُّفٌ يُهَيَّأُ أو يُقصد به (أو يصْلُح) للاستمرار عليه والعمل به وهذا امتدادٌ ونفاذٌ ".[6] وسُنّةُ الوجهِ: طريقتُهُ.

---

1 - ابن فارس. معجم مقاييس اللّغة، تحقيق: عبد السلام محمّد هارون، ج3، (لا.ط، دار الفكر، د.م، د.ت)، ص60.

2 - محمّد حسن حسن جبل. المعجم الاشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم، مج2، (ط1، مكتبة الآداب: القاهرة، 2010م)، ص1078.

3 - أبو بكر. مختار الصّحاح. ضبط وتخريج وتعليق: مصطفى ديب البغا، (ط4، دار الهدى، عين مليلة: الجزائر، 1990م)، ص207.

4 - وهو: خالد بن زهير الهُذليّ. ينظر: ابن فارس. معجم مقاييس اللّغة، ج3، المرجع السّابق، ص61، الهامش رقم: (1). وقيل: خالد بن عُتْبة الهُذليّ. ينظر: ابن منظور. لسان العرب، ج17، (ط1، المطبعة الميريّة، مصر، 1303هـ)، ص89.

5 - ابن فارس. معجم مقاييس اللّغة، ج3، المرجع السّابق، ص61. وينظر: الجرجاني. التّعريفات، اعتنى به: مصطفى أبو يعقوب، (ط1، مؤسّسة الحسنى، الدّار البيضاء - المغرب، 1427هـ/2006م)، ص72.

6 - محمّد حسن حسن جبل. المعجم الاشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم، مج2، المرجع السّابق، ص1079.

وقد ورد لفظ: السُّنَّةِ في القرآن الكريم ستّة عشر مرّةً،[7] ولكن بصيغ مختلفةٍ، وبمعانٍ متقاربة؛ بمعنى: العادات الجارية، والطّرائق والمناهج والسّيرة المألوفة والمعهودة، وسُنَّةُ الله تعالى: قد تُقالُ لطريقةِ حِكمَتِهِ، وطريقةِ طاعَتِهِ.[8] وسَنَّ اللهُ سُنَّةً أي: بيَّنَ طريقًا قويمًا.[9]

1- 1- 2- السُّنّة في الاصطلاح: إنّ المتأمّل في معنى السُّنّة في اصطلاح علماء الشّريعة يجد أنّ معناها - إجمالًا - لا يخرج عن سياقها اللُّغويّ؛ كالعادة والسّيرة والطّريق، وفي هذا السّياق يقول ابن تيمية: " والسُّنَّة هي العادة التّي تتضمّن أن يُفعل في الثّاني مثل ما فُعل بنظيره الأوّل، ولهذا أمر الله سبحانه تعالى بالاعتبار (...) والاعتبار أن يُقرن الشّيءُ بمِثْلِهِ فيُعلم أنّ حُكمه مثلَ حُكمِه ".[10]

ويقول في موضعٍ آخر: " والسُّنَّةُ هي العادةُ في الأشياء المتماثلة ".[11] ثمّ يُضيف قائلًا: "فإنّه سبحانه إذا حكم في الأمور المتماثلة بحُكمٍ فإنّ ذلك لا ينتقض ولا يتبدّل ولا يتحوّل، بل سبحانه لا يُفَوّتُ بين المتماثلَيْن، وإذا وقع تغيّرٌ فذلك لعدم التّماثل ".[12] ثمّ يربط بين اطّراد سنن الله تعالى في خلقه وبين مسألة الاعتبار، فيقول: " ومن هذا الباب صارت قصص المتقدّمين عِبرةً لنا، ولولا القياس واطّراد فعلِهِ وسُنّتهِ لم يصحّ الاعتبار بها. والاعتبارُ إنّما يكون إذا كان حُكمُ الشّيءِ حُكمَ نظِيرِه، كالأمثالِ المضروبةِ في القرآن، وهي كثيرةٌ ".[13]

والسُّنّة في بعض نصوص القرآن الكريم - وإن أُضيفت إلى غير الله Y - فهي في الأصل من إرادة الله تعالى وقدرته المطلقة في خلقه. وفي هذا المقام يقول ابن عاشور عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ**﴾ **[الحجر:13]**: " والسُّنّة العادة المألوفةُ (...) وإضافتها إلى «الأوّلين» باعتبار تعلّقها بهم، وإنّما هي سُنّة الله فيهم لأنّها المقصود هنا، والإضافة لأدنى ملابسةٍ ".[14]

1- 2- مفهوم مصطلح السُّنن الإلهيّة:

إنّ السُّنن الإلهيّة هي قوانين الله تعالى التّي تضبط حركة الكون والآفاق والأنفس، وبهذا المعنى يعرّفها الإمام محمّد عبده بقوله: " والسّنن الطّرائق الثّابتة التّي تجري عليها الشّؤون وعلى حسبِها تكون

7- ينظر: محمّد فؤاد عبد الباقي. المعجم المفهرس للقرآن الكريم، (لا.ط، دار الكتب المصريّة، 1364هـ)، ص367.

8 - ينظر: الرّاغب الأصفهاني. مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، (ط4، دار القلم - الدار الشّامية، د.م، 1430هـ/2009م)، ص429.

9 - ابن منظور. لسان العرب، ج17، مرجع سابق، ص89.

10 - ابن تيميّة. مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمّد بن قاسم، مج13، (لا.ط، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشّريف، المملكة العربيّة السّعوديّة، 1425هـ/2004م)، ص20.

11- ابن تيميّة. جامع الرّسائل، المجموعة الأولى، تحقيق: محمّد رشاد سالم، (ط2، دار المدني: جدّة، 1405هـ/ 1984م)، ص55.

12 - المرجع نفسه، المجموعة الأولى، ص55.

13 - المرجع نفسه، المجموعة الأولى، ص55.

14 - الطّاهر ابن عاشور. تفسير التّحرير والتّنوير، ج14، (لا.ط، الدّار التّونسيّة للنّشر: تونس، 1984م)، ص25.

الآثارُ، وهي التّي تسمّى شرائع أو نواميس، ويُعبّرُ عنها قومٌ بالقوانين ".[15] ويعرّفها الشّيخ محمّد الغزاليّ بقوله: " السّنن الاجتماعيّة في القرآن هي القوانين المُطّردة والثّابتة التّي تُشكّل إلى حدٍّ كبيرٍ ميكانيكيّة الحركة الاجتماعيّة ".[16] فسُنَّةُ الله تعالى هي: " الطّريقة المُتّبعة في معاملة الله تعالى للبشر بناءً على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله وأنبيائهِ وما يترتّب عليها من نتائج في الدّنيا والآخرة ".[17] أو هي: " تلك القوانين الإلهيّة في الكون والنّفس والمجتمع التّي لا تبديل ولا تغيّير ولا تحويل لها ".[18]

فالسُّننُ الإلهيّة هي القانون العامّ الذّي تخضع إلى أحكامه أفعال البشر وسلوكاتهم، فهي: " إرادة الله الكونيّة، وأمره الشّرعيّ، وفعله المطلق، وكلماته التّامّات، ووعوده الحقّة، وحكمه في آفاق الكون وتسلسل التّاريخ، الجارية بالعباد من المعاش إلى المعاد ".[19]

وبالرّغم من وجود عددٍ هائلٍ من هذه السُّنن الإلهيّة غير أنّه بإمكاننا عند تدقيق الفحص والنّظر أن نجدها نوعين أساسين من السُّنن الإلهيّة:

أمّا الأوّل: فهو الأوسع نطاقًا، ويتضمّن الجانب الماديّ من هذا الكون، " ويُعرف بسنن الكون، أو الطّبيعة، أو سنن الآفاق، وتعني نواميس الله سبحانه وتعالى في تسيّير الكون وعمارته. وهي متعلّقة بربوبيّته وخَلقهِ جلَّ وعلا ".[20]

وأمّا الثّاني: فهي السّنن والقواعد الخاصّة بالإنسان - فردًا وجماعةً وأمةً - والضّابطة لعلاقته بهذا الكون وخالقه، وتُسمّى: " سُنن الاجتماع والعمران أو سُنن الأنفس أو السُّنن الشّرعيّة أو الدّينيّة أو الأمريّة. وهذا النّوع من السُّنن متعلّقٌ بِإِلَهِيَّتِه تبارك وتعالى وشرعِه ".[21]

وهذا النّوع من السُّنن؛ أي: سنن الاجتماع والعمران، يملك معه الإنسان حريّة الاختيار، ولكن في المقابل عليه أن يتحمّل تبعات اختياره، ونتائج ذلك الاختيار.

ولقد ميّز ابن تيميّة بين هذه السّنن الاجتماعيّة والسّنن الكونيّة، مبيّنًا الفرق الدّقيق بينهما، وذلك بعد أن سرد جملةً من السُّنن الشّرعيّة والاجتماعيّة، قائلًا: " وهذه السُّنن كلّها سُننٌ تتعلّق بدينهِ وأمرهِ

---

15 - محمّد عبده. الإسلام بين العلم والمدنيّة، (لا.ط، مؤسّسة هنداوي: المملكة المتّحدة، 2010م)، ص79.

16 - محمّد الغزاليّ. كيف نتعامل مع القرآن؟ (ط7، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، يوليو 2005م)، ص48.

17 - عبد الكريم زيدان. السّنن الإلهيّة في الأمم والجماعات والأفراد في الشّريعة الإسلاميّة، (ط1، مؤسّسة الرّسالة، 1413هـ/1993م)، ص13.

18 - طه جابر العلوانيّ. إشكاليّة التّعامل مع السُّنّة النّبويّة، (ط1، المعهد العالميّ للفكر الإسلاميّ، الولايات المتّحدة الأمريكيّة، 1435هـ /2014م)، ص115.

19 - رشيد كهوس. في تعريف السّنن الإلهيّة، موقع الجزيرة نت: https://www.aljazeera.net، يوم: 2023/9/08م، بتوقيت: 15 و: 30د.

20 - المرجع نفسه، يوم: 2023/9/08م، بتوقيت: 15 و: 32د.

21 - المرجع نفسه، يوم: 2023/9/08م، بتوقيت: 15 و: 32د.

ونهيِهِ ووَعْدِهِ ووَعِيدِهِ، وليست هي السُّنن المتعلّقة بالأمور الطّبيعيّة كسُنَّته في الشّمس والقمر والكواكب وغير ذلك من العادات ".[22]

2- مفهوم الوعي السُّنيّ ومدى الحاجة إليه:

إنّ مصطلح الوعي تطوّر استعمالهُ، وذلك تماشيًّا مع تطوّر الحياة الثّقافيّة والفكريّة؛ فبعد أن كان يُستعمل لمعنى: الحفظ والجمع، صار يُستعمل لإرادة معنى: الفهم وسلامة الإدراك. مثلما كان يُعرّفه علماء النّفس في الماضي بأنّه: " شعورُ الكائن الحيّ بنفسِه، وما يُحيطُ به ".[23] ومع تقدّم العلوم والمعارف، والذّي ترتّب عليه تعقّد المفاهيم، وتشابك المصطلحات، إلى أن أخذت دلالة مصطلح الوعي عُمقًا أكثر، وتفرُّعًا وتوسُّعًا أكبر، حتّى أنّه استُعمِلَ في العديد من مجالات العلوم، " كما كثُرت المجالات التّي يُضاف إليها الوعيُ؛ فهناك وعيُ الذّات، والوعي الاجتماعيّ، والوعي الطّبقيّ والسّياسي... ".[24]

فالوعي السُّنيّ هو: " العلم والإدراك والفهم الحقيقيّ للقوانين والنّواميس والقواعد والأنظمة الثّابتة والمطّردة التّي تحكم الكون والمجتمعات والأفراد، وتحكم حركة التّاريخ، لكي تؤدّي وظيفتها الذّاتيّة والكونيّة بانتظامٍ ".[25]

إنّ كلَّ مَن له مسكةٌ من عقلٍ أو نفحةٌ من علمٍ يُدركُ أنّ الأمّةَ - أيّة أمّة - لا يمكن أن يستقيم حالها إلّا بفهمها لهذا النّظام الإلهيّ، وإدراكها لهذه السُّنن الإلهيّة، وانسجام حياتها مع هذا النّظام، وتكيّفها مع هذه السُّنن، فإنْ أعرضت عنها أو خَالفَتْها جهلًا أو تجاهُلًا وتهاونًا، أو عِنادًا واستكبارًا، فإنّها - وبالضّرورة - ستُواجِهُ نهايةَ نظيراتِها، ومصيرَ أمثالِها من الأمم، من دون تخلُّفٍ لهذا النّظام الإلهيّ، ولا محاباةٍ من هذه السُّنن الإلهيّة لأمّة دون أخرى، ولا لجماعةٍ دون جماعةٍ، ولا لفردٍ على حساب آخر.[26]

إنّ أمر الاستخلاف الإنسانيّ لا يُتصوّر تصوّرًا كاملًا إلّا بالتعرّف على هذه السّنن الإلهيّة وإدراكها تمام الإدراك؛ ذلك " لأنّ أمر تسخير الكون مرتبطٌ إلى حدٍّ كبيرٍ بحُسنِ إدراكها، ذلك أنّ التّعرُّف عليها لا يمنح الإنسان القدرة على تسخير الكون فحسب، وإنّما يمنحهُ قدرًا كبيرًا من التّحكّم بالنّتائج، والتّخفيف من الآثار السّلبيّة ومغالبة قَدَرٍ بقَدَرٍ، والفرار من قَدَرٍ إلى قَدَرٍ ".[27]

---

22 - ابن تيميّة. جامع الرّسائل، المجموعة الأولى، مرجع سابق، ص52.

23 - عبد الكريم بكّار. تجديد الوعي، (ط1، دار القلم، دمشق، 1421هـ/2000م)، ص9.

24 - المرجع نفسه، ص9.

25 - مصطفى مخلوف. و: بدر الدّين زواقة. معالم الوعي السُّنيّ في المشروع الإصلاحيّ عند عبد الحميد بن باديس، مجلّة: **الشّهاب**، المجلّد: 09، العدد: 01 (2023م)، ص515.

26 - للمزيد ينظر: حسن بن صالح الحميد. سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم، (ط2، دار الفضيلة: الرّياض، 1432هـ /2011م)، ص6.

27 - أحمد محمّد كنعان. أزمتنا الحضاريّة في ضوء سُنّة الله في الخلق، تقديم: عمر عبيد حسنة، (لا.ط، أمّتي للنّشر الالكترونيّ، د.م، د.ت)، ص12 - 13.

إنّ حاجة المسلمين اليوم جدُّ ماسّةٍ إلى الوعي السُّننيّ، وإلى استيعاب السُّنن الإلهيّة وفهمِها، " وحُسن التّعامل معها وتسخيرها للقيام بأمانة الاستخلاف وتعمير الأرض، أشدُّ من حاجتهم للحُكمِ التّشريعيّ الذّي تضخّم وتضخّم حتّى كاد يشملُ الإسلام بأبعاده كلِّها، مع أنّ الحاجة إليه تأتي ثمرةً لإعمالِ هذه السُّنن ".[28]

لقد دعانا القرآن الكريم إلى التّأمّل في أحداث التّاريخ، والنّظر في وقائعه، بُغية الكشف عن السّنن الإلهيّة في الأنفس والمجتمعات؛ " فيترسّخ في وعينَا نوعٌ من الفقهِ لعلاقات الأشياء لنتحسَّسَ من بعد ذلك النّتائج عندما نُبصرُ المقدّمات، ولِنرى المقدّمات من خلال رؤية النّتائج ".[29] كما أنّ الوعي السُّننيّ يُمكِّننا من إدراك العناصر المشتركة بين البشر، ويُرشدُنا إلى الدّوافع التّي تُحرِّكُهم، وإلى تميّيز وفهمِ الفوارق بين ما هو كائنٌ، وما ينبغي أن يكون.

ولعلّ من أدقّ مميّزات هذا الوعي: " استشرافُ الماضي، والتّوغّلُ في العمق التّاريخيّ، واستيعابُ التّجارب، واكتشافُ العللِ الحضاريّة أو عللِ التّدين، وجوانبِ القوّة والنّهوض، وأسبابِ الضّعف والسّقوط، وتحديدُ السُّنن الاجتماعيّة الفاعلة في الحياة والأحياء، والإحاطةُ بالقضايا المطروحة، وتحليلُ جوانبها المتعدّدة، وسننِها أو قوانينِها، والنّظرُ في نتائج هذا الماضي، المتمثّلةِ في الحاضر بكلّ معاناته (...) والتّعرّفُ إلى الأولويّات، واعتمادُ سنّةِ التّدرّج وعنصرِ الزّمن كوعاءِ حركةٍ وقيمةِ إنجاز في الوقت نفسه، والتّعاملُ مع المتاح، وعدمُ خلط الأهدافِ بالوسائل، والإمكاناتِ بالأمنيّات، والحماسِ بالاختصاص، والإحساسِ بالإدراك، وتجنّبُ عثراتِ دعوات الإصلاح والتّجديد والتّغيّير، والتخلّص من حالة الانطفاء الثّقافيّ، الذّي يُبعثر القدرةَ، ويُعطِّل الإرادةَ ".[30]

فالمستقبلُ غيبٌ لا يعلمهُ إلّا المولى Y، غير أنّ السُّنن الإلهيّة النّافذ قانونها في كلّ مناحي الحياة الإنسانيّة، والتّي تضع أمامنا " مؤشّراتٍ لما يمكن أن يحدث. وحين يكون ما نُخطّطُ له في المدى القريب، فإنّ توقّعاتنا تكون أقرب إلى التّحقّق ".[31]

إنّ سنن الله تعالى هي التّي " تُوثّقُ العلاقة بين الماضي والحاضر. والواقعة التّي وقعت فيما مضى، يمكن أن يقع ما يُشبهُها إذا تهيّأت الظّروفُ نفسُها التّي أحاطت بها. وهذا هو معنى استخلاص العِبرة من التّاريخ، والاستفادة من مُعطياته وتجاربه.

يقول الشّيخ محمد رشيد رضا: " إنّ إرشاد الله إيّانا إلى أنّ له في خلقِه سُننًا، يُوجب علينا أن نجعل هذه السُّنن عِلمًا من العلوم المدوَّنة؛ لِنَسْتَدِيمَ ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجهٍ، فيجب على

---

28 - محمّد الغزاليّ. كيف نتعامل مع القرآن؟ مرجع سابق، ص48.

29 - عبد الكريم بكّار. تجديد الوعي، مرجع سابق، ص151.

30 - مصطفى محمد حميداتو. عبد الحميد بن باديس وجهوده التربويّة. تقديم: عمر عبيد حسنة، (ط1، كتاب الأمّة، وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة، قطر، السّنة:17، العدد:7، 1418هـ/1997م)، ص11.

31 - عبد الكريم بكّار. تجديد الوعي، المرجع السّابق، ص263.

الأمّة في مجموعها، أن يكون فيها قوم يُبيّنون لها سنن الله في خَلْقه؛ كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التّي أرشد إليها القرآن بالإجمال وبيَّنَها العلماء بالتّفصيل ".[32]

ويؤكّد في موضع آخر بأنّ " لِسَيْرِ النّاس في الحياة سُننًا يُؤدّي بعضُها إلى الخير والسّعادة، وبعضُها إلى الهلاك والشّقاء، وأنّ مَن يتبع تلك السُّنن فلا بدّ أن ينتهي إلى غايتها، سواءٌ كان مؤمنًا أو كافرًا، كما قال سيدنا عليّ: إنّ هؤلاء قد انتصروا باجتماعهم على باطِلهم، وخُذِلتم بتفرّقكم عن حقّكم ".[33]

إنّ هذا الفقه والوعي السُّننيّ قد وظّفه ابن باديس في مشروعه الإصلاحيّ، وأنزله على أرض الواقع، مُسترشِدًا بمعالمه، مُستندًا إلى مُرتكزاته، وعامِلًا على الاهتداء بما سنّ الله تعالى من قوانين تحكم الآفاق، وسُننٍ تضبط حركة الأنفس والأمم والمجتمعات. وهذا ما سيأتي بيانهُ في العنصر الموالي.

ثانيًا: اهتمام ابن باديس بفقه السّنن الإلهيّة

لقد أَوْلَى ابن باديس للقرآن الكريم وتفسيره أهميّة بالغة، وقد كان تفسيرهُ للقرآن تفسيرًا سلفيًّا، مُراعيًّا فيه مقتضيات عصره، ومُعتمدًا في ذلك على " أصول البيان العربيّ وسُننهِ، والنّفاذ إلى لغة العرب وآدابها، وقوانين النّفس البشريّة وسُنن المجتمع الإنسانيّ، وتطوّر التّاريخ والأمم ".[34] فهو - إلى جانب كلّ هذا - " مؤرّخٌ يُحلّل الحضارة، وينقد مقدّمة ابن خلدون، ويدرس آيات القرآن وما تنطوي عليه من الدّعوة إلى النّظر في تجارب الأمم وتطوّرات الأحداث، وما تخضع له من سُنن وقوانين لا تبديل لها ولا تحويل ".[35]

ذلك لاعتباره أنّ المطلوب شرعًا هو التّدبّر في كتاب الله العزيز لاستخراج ما فيه من أسرارٍ وسننٍ إلهيّةٍ، فيُقرّر ذلك قائلًا: " إنّ القرآن كتابُ الدّهر ومُعجزته الخالدة فلا يستقلُّ بتفسيره إلّا الزّمنُ، وكذلك كلام نبيّنا ρ المبيّن له، فكثيرٌ من متون الكتاب والسّنّة الواردة في معضلات الكون ومشكلات الاجتماع لم تُفهم أسرارها ومغزاها إلّا بتعاقب الأزمنة وظهور ما يصدقها من سُنن الله في الكون (...) والعلماءُ القوّامون على كتاب الله وسُنّة رسوله لا يتلقّونها بالفكر الخامد والفهم الجامد، وإنّما يترقّبون من سُنن الله في الكون وتدبيره في الاجتماع ما يكشف لهم عن حقائقها ".[36]

وهذا - من دون أدنى شكٍّ - مِنْ تمامِ وعْيِهِ السُّننيّ، وكمالِ فِقهِه في ترتيب الأولويّات عنده؛ إذ أنَّه أعطَى في منهجِهِ الإصلاحيّ والتَّربويّ، الأولويةَ للقرآن الكريم وعُلومِهِ - فَهْمًا وتَنْزِيلًا -، ذلك لأنّ القرآن الكريم هو منهلُ هذه السُّنن، ومنبع هذا الوعي ومُرشدهُ، وهذا مِعيارٌ لا يخطئُ أبدًا؛ إذْ مِنَ المعَايِير التِّي

32 - محمّد رشيد رضا. تفسير المنار، ج4، (ط3، دار المنار: مصر، 1367هـ)، ص139.

33 - المرجع نفسه، ج4، ص142.

34 - عمّار الطّالبيّ. آثار ابن باديس، مج1، ج1، (ط3، الشّركة الجزائريّة: الجزائر، 1417هـ/1997م)، ص91.

35 - المرجع نفسه، مج1، ج1، ص92.

36 - المرجع نفسه، مج1، ج2، ص117.

ينْبغِي الرُّجوعُ إليها في بيان مَا هُوَ أحقُّ وَأوْلَى بالرّعاية والتَّقديم على غيرِه أنْ نُعنَى بالأمر على قدرِ مَا عَنِيَ به القرآنُ الكريم.[37]

وهو في ذلك آخذٌ بوصيّة شيخهِ: (محمَّد النَّخليُّ القيروانيَّ) الذّي أوصاه بقوله: " اِجعلْ ذهنَكَ مِصفاةً لِهذه الأساليب المعقَّدة، وهذه الأقوال المختلفة، وهذه الآراء المضطربة، يسقطُ السَّاقطُ، ويبقَى الصَّحيحُ وتستريحْ ".[38] فيُعلّق ابن باديس على ذلك بقوله: " فو اللهِ لقد فتحَ بهذه الكلمات القليلة على ذِهْني آفاقًا واسعةً لا عَهْدَ لهُ بهَا ".[39] فمِن خلال هذه الوصيَّة اكتسبَ ابنُ باديس وعيًا عميقًا، نتيجةَ صِلتِه الوطيدةِ بكتابِ اللهِ تعالى.

ولم يكن لابن باديس- في حقيقة الأمر - أهدافٌ متعدِّدةٌ، بل كان له هدفٌ واحدٌ متعدِّدُ الوجوه، ويتمثّل هذا الهدف في إنقاذِ الأمّة الجزائريَّة ممَّا سقطت فيه من ضياعٍ وانهيارٍ حضاريٍّ شاملٍ على كافَّة المستويات. وتتمثَّل هذه الأهدافُ - إجمالًا - فيما يلي:[40]

1/ إحياءُ التديُّن والمحافظةُ على الشَّخصيَّة الإسلاميَّة للمجتمع الجزائريّ.

2/ إحياءُ اللُّغة العربيَّة وحفظُ مكانتِها في المجتمع الجزائريّ.

3/ تحريرُ الشَّعب الجزائريّ واستقلالُه عن فرنسا.

فهو - رحمه الله - من أوَّل خُطوة اختار الطَّريق الموافق لمقتضى مقاصد القرآن الكريم، وسُنن الله تعالى المبثوثة في هذا الكتاب العزيز، فراعى حمايةَ أُمَّ المقاصد الشَّرعيَّة وأعلى كليَّاتِها، ألا وهي: حِفظ الدِّين، الذِّي تُبنى عليه شخصيَّة الشَّعب الجزائريّ المسلم. ولن يكتمل هذا إلَّا بتحرير هذا الشّعب من قيود الاستدمار، وحبائل خداعه المتنوّعة. وكلُّها أهدافٌ تتوافق تمامَ التَّوافق مع ما فَقِهَهُ من سُنن الله تعالى في الآفاق والأنفس، وما أدركه من أسرار ومقاصد شريعته السَّمحة.

فابن باديس بلغ إيمانه بالسّنن الإلهيّة وثباتها ونفاذها درجة اليقين، فهو القائل: " ولله سننٌ نافذةٌ بمقتضى حِكمتهِ ومشيئتِهِ في ملك الأرض وسيادة الأمم يُؤتي المُلكَ من يشاءُ وينزع المُلك ممّن يشاءُ ويُعزّ من يشاءُ ويُذلُّ من يشاءُ مَن أخذ بنوعٍ من تلك السّنن بلغت وبلغ بها إلى ما قدّر له من عزٍّ أو ذُلٍّ وسعادةٍ وشقاءٍ وشدّةٍ ورخاءٍ وكلُّ محاولةٍ لصدِّها عن غايتها - وهو آخذٌ بها - مقضي عليها بالفشل. سنّة الله، ومن ذا يُبدّلها أو يُحوّلها؟ ".[41]

---

37 - يوسف القرضاويّ. في فقه الأولويّات دراسة جديدة في ضوء القرآن والسّنة، (ط1، مؤسّسة الرّسالة: لبنان، 1421هـ/2000م)،ص100.

38 - المرجع نفسه،ص161.

39 - المرجع السّابق،ص161.

40 - ينظر: مسعود فلوسي. الإمام عبد الحميد بن باديس لمحات من حياته وأعماله وجوانب من فكره وجهاده، (ط1،الجزائر: دار قرطبة للنشر والتوزيع: الجزائر،1426هـ/2006م)، ص88. وما بعدها.

41 - عمّار الطّالبيّ. آثار ابن باديس، مج1، ج1، مرجع سابق، ص356 - 357.

إنّ هذا الوعي الباديسيّ للسُّنن الإلهيّة في الآفاق والأنفس هو ما جعلهُ يُحاربُ ذلك التّديّن الشّكلانيّ، الذّي يحصر العبادة في تسبيحاتٍ وحركاتٍ، ويُحاصر العقل في شباكِ الجبريّةِ، ويحجرُ على دوره الحضاريّ، وفي أمثال هؤلاء يقول شيخنا محمّد الغزاليّ: " إنّ الذّين يحسبون علوم الكون والحياة علومًا طفيليّةً على دين الله، ويظنّون العبادةَ حمل السّبح وتحريك حبّاتها بكلماتٍ جوفاء ناسٌ عميانٌ لا وزن لهم ".[42]

لقد اعتمد ابن باديس على سنَّة الأخذ بالأسباب، وخطَّط مع إخوانه ونظّم الصُّفوف، ووضع الأهداف وحدَّد المراحل والخطوات للوُصول إليها، وأدْرك طبيعةَ كُلّ مرحلةٍ وخُصوصِيَّتَها، بحيثُ لا يَعمَدُ إلى تجاوز المراحل أو حَرقِها، فيتعجَّلُ النّتائجَ قبل أوانِها، فيُعاقَب بِحرْمانِهَا.

كما اعتمد في خُطَّته الإصلاحيَّة على دراسةٍ عميقةٍ للوضع القائم بالجزائر، ونظرٍ بعيدٍ مُستشرفٍ للمستقبل، مُستندًا في ذلك كلِّه إلى الوعي بالسّنن الإلهيّة، ومقاصد التَّشريع الإسلاميّ؛ إذ امتازت هذه الخُطَّة بالإحكام والدقَّة، وبُعدِ النَّظر واستشْراف المستقبل، ووصْف العلاج النَّاجح، وهو نشرُ العلمِ والعقيدة الصَّحيحة، والعبادةِ السَّليمة، والأخلاقِ الفاضلة، والقِيَمِ السَّامية، والمبادئِ الحميدة، وتربيةُ النَّاس على هدي القرآن وتَعاليمه، والاسْترشَادُ بِهَدْي النَّبيّ ρ، وبالمحطَّات المضيئة مِن التَّاريخ الإسلاميّ والبَّشريّ.[43]

وفي هذا الشّأن يقول: " فالجاهلةُ التّي تلدُ أبناءً للأمّة يعرفونها مثل أمّهاتنا - عليهنَّ الرّحمة - خيرٌ من العالِمَة التّي تلدُ للجزائر أبناءً لا يعرفونها، تعليمُ كلّ واحدٍ لأهلهِ بما عندهُ من عِلمٍ ".[44]

لقد آمن في مشروعه الإصلاحيّ - تنظيرًا وتنزيلًا - بمبدأ البَّدء بالسَّهل واستيعابِه، للوصول إلى الصَّعب الغامضِ وفهمِهِ. فهو لا يسلكُ مسلكَ شديديّ التزمُّت الذّين يغرسون اليَّأس في النُّفوس، بل كان يجذبُ النَّاس إلى حركته بالتَّواضُع والمودَّة، حتّى قيل أنَّه كان يُعامل تلاميذَه كأبنائِه، وأنَّه كان يُودّعُهم فردًا فردًا عند سفَرهم إلى قُراهم أو بلادهم.[45]

كما كان مدركًا - كاملَ الإدراكِ - لخُططِ الاستدمارِ الفرنسيّ الذّي يُريد إشاعةَ الفُسوقِ والفُجورِ في المجتمع الجزائريّ، حتى يُكرّسَ استعمارَه له روحيًّا وفكريًّا وأخلاقيًّا، فيُشير إلى استبداده وجَورِه بقوله: " فإنَّه إذا جارَ السُّلطانُ - وهو مَن له السُّلطة في تدبيرِ أمرِ الأمَّةِ والتَّصرُّفِ في شُؤونِها - فسدَ كلُّ شيءٍ: فسدتِ القلوبُ والعقولُ والأخلاقُ والأعمالُ والأحوالُ، وانحطَّت الأمَّةُ في دينِها ودُنياها إلى أحطِّ الدَّرجاتِ،

---

42 - محمّد الغزاليّ. المحاور الخمسة للقرآن الكريم، (لا.ط، دار الشّروق، د.م، د.ت)، ص59.

43- ينظر: عليّ محمّد الصَّلابيّ . كفاح الشّعب الجزائريّ ضدّ الاحتلال الفرنسيّ، وسيرة الزّعيم عبد الحميد بن باديس، (ط1، دار ابن كثير: لبنان، 1437هـ/2016م)، ص117.

44- مجلّة: الشّهاب، ج10، م5، غرّة جمادى الثّانية 1348هـ/نوفمبر 1929م، المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة، قسنطينة، ص9 - 14.

45 - ينظر: عبد الكريم بوصفصاف. الفكر العربيّ الحديث والمعاصر محمّد عبده وعبد الحميد بن باديس نموذجًا، ج1، (لا.ط، دار الهدى: الجزائر،د.ت)، ص303.

ولحِقهَا مِن جرَّائهِ كلُّ شرٍّ وبلاءٍ وهلاكٍ، ثُمَّ يتفاوتُ ذلك الفسادُ بحسَبِ ذلك الجَورِ في قدرهِ وسِعتهِ ومدَّةِ بقائهِ ".[46]

والحل في تصوّر ابن باديس يصفه بقوله: " إنَّما يَنهض المسلمون بمُقتضيات إيمانهم بالله ورسوله إذا كانت لهُم قوةٌ، وإنّما تكون لهم قوةٌ إذا كانت لهم جماعةٌ منظَّمةٌ تُفكِّر وتدبّر وتتشاور وتتآزر، وتنهضُ لجلبِ المصلحة ولدَفعِ المضرَّة، مُساندة في العمل عن فكرٍ وعزيمةٍ ".[47] وليس بالوهم والوهن، والتّمكين للخرافات والأباطيل.

ثالثًا: توظيف ابن باديس للوعي السُّنيّ في مشروعه الإصلاحيّ

معلومٌ أنَّ المدرسة التِّي تأثَّر بها ابن باديس في تكوينه العلميّ هي مدرسة الإصلاح؛ وهي التّي تقوم على بعث الفكر، وتجديد مناهج التَّفكير، وإحياء وظيفة العقل التّي تغشَّتها رواسبُ التَّقليد والتَّعصُّب الممقُوت، وغطَّتها أغشيةُ الجهل، ولفَّهَا ظلامُ الخُرافات والضَّلالات، فَضلَّ العقلُ وأضلَّ.

وهذا التَّكوين ساهم في تأهيل ابن باديس أن يُصبح عالماً متمكِّنًا من علوم كثيرة، ذا ثقافة موسوعيَّة، مجتهدًا في علوم شتّى، ومُطَّلعا على فنون متعدّدة. واطِّلاعه هذا هو الذّي مكَّنهُ من أن يؤدّي عمله الإصلاحيّ هذا أداءً منضبطًا بالسُّنن الإلهيّة، هادفًا إلى الاسترشاد بها، والعملِ والتّخطيط وِفْقَها، مُراعيًّا واقع حياة المجتمع الجزائريّ.

وفيما يلي عرضٌ لأَهَمِّ ملامح وعْيِه السُّنيّ الكليّ، ولِأبْعادِ رُؤيتِه الشَّاملةِ في معالجتِه لمُشكِلاتِ مُجتمعِه وأُمَّتِه، وللآليّات التّي اعتمدها في توظيفه لهذا الوعي السُّنيّ في مشروعه الإصلاحيّ:

1/ مراعاةُ سُنّةِ التّدرُّجِ:

معلومٌ لدى الحكماء وعلماء الشَّريعة أنَّ فهمَها وتنزيلَها يحتاج إلى الإلمام بفقهِ الأولويّات واعتمادِ التّدرُّج والمرحليّة في ذلك؛ فهو خاصيَّةٌ تُعدُّ من الثَّوابت المُهمَّة في عمليّة الإصلاح والتَّغيير، وهي ذاتُ أصولٍ مُمتدّةٍ إلى العصر النَّبويّ، وكما أنَّه ليس موضوعُ مناسبات النُّزول والنَّسخ وبعضِ مباحث التَّعارض والتَّرجيح في الأخبار والمعانِي وغير ذلك،إلاَّ دليلًا على تقرير هذا المبدأ العظيم، ووجوبِ الالتفات إليه في عمليّة الإصلاح.

وعدم مراعاة هذا الصّنف من الوعي قد يؤدّي إلى الوقوع في آفة التعسُّف في استعمال الحقّ، ومُناقضة قصد الشَّارع؛ ومُقتضى آليات هذا الوعي السُّنيّ ألاَّ يُقدَّمَ غيرُ الأهمّ على المهمّ، ولا المهمُّ على الأهمّ، بل يُقدَّم ما حقُّهُ التَّقديمُ، ويؤخَّر ما حقُّه التَّأخيرُ، ولا يُكبَّر الصَّغيرُ ولا يُهوَّن الخطيرُ، بل يوضَعُ كلُّ

46- حسن عبد الرحمان سلوادي. عبد الحميد بن باديس مُفسِّرا، (لا.ط، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب: الجزائر، 1988م)، ص154.

47- الإمام المصلح الشّيخ عبد الحميد بن باديس. تفسير ابن باديس أو مجالس التّذكير من كلام الحكيم الخبير، اعتنى به وخرّج أحاديثه وآثاره: أبو عبد الرحمن محمود، (ط1، دار الرّشيد للكتاب والقرآن الكريم: الجزائر،1430هـ/ 2009م)، ص221.

شيءٍ في موضعه، بِلاَ طغيانٍ ولَا إِخْسارٍ.[48] وكلّ ذلك يحتاج إلى ذي عقلٍ قويمٍ؛ إِذْ إِنَّ العِلم للإسلام، كالحياة للإِنسان، ولن يجد هذا الدِّين مُستقرًّا له إلَّا عند أصحاب المعارف النّاضجة والألباب الحصيفة.

إنّ سنّة التّدرّج منهج ربّانيّ، وسنّةٌ قرآنيّةٌ " لها أبعادٌ تربويّةٌ لا بدّ من إدراكها حتّى يمكن تبليغ دعوةٍ وإقامة حضارةٍ ".[49] وقد انتهج ابنُ باديس في عمله الإصلاحيّ منهجَ المرونة والتدرُّج في تعاملِه مع الإدارة الاستعماريّة، ولم يُرد إثارةَ سخَطها، حتىَّ لا تقف عقبةً أو تحُولَ دُون تحقيق أهدافهِ المتمثِّلة في إخراج الشَّعب الجزائريّ من ظُلْمة الجهل إلى نُور العلم، ومن أغلال الاستعمار الغاشم إلى الحريَّة ورِحابِها. فالرَّجل " لم يكُن يسيرُ سيرًا أهوجَ لا يعتمدُ على أساسٍ علميّ أو منهجيّ، وإنَّما كان يحسِبُ لكلّ خُطوةٍ حِسابَها، لأنَّه يُدركُ ثقلَ الحمل الذّي كان يحمِلُه، ولقد اضطرّتهُ الظُّروفُ في بعض الأحيان إلى أنْ يُمارس نوعًا من المهادنة للسُّلطات الاستعماريّة ويُداريها بإظهار التَّوقير والاحترام لِرجالِها، ولكنَّه كان يفعلُ ذلك لأنَّه رأى أنّ المرحلة كانت تقتضِيه، حتىَّ لا تموت دعوتُه في مهدِها، ويُقضى على حركتِه الإصْلاحِيَّة قبل أنْ تُؤتيَ أُكلَها ".[50]

وهو في كلّ ذلك كان يسترشد بمنهج النّبيّ ρ في تبليغه للرّسالة، فيقول: " قد بلّغ ρ رسالة ربّه بالقول والعمل إلى آخر رمقٍ من حياتهِ، وكان تبليغُهُ كما أمره ربّهُ على درجاتٍ حسب التّدريجِ الذّي هو من سنّة الله في خلقهِ وفي شرعهِ ".[51]

وهل معنى ذلك أنَّ الرجلَ كان يقبل الدنيَّة والذلَّ في دِينهِ؟! لا بل إنَّه كان كثيرًا ما يثورُ في وجه بعض الممارسات الاستعماريّة، ويُعلنُ عليها الغضب والثَّورة، ولكن دائمًا بحكمةٍ ورويَّةٍ وتغليبٍ لمصلحةِ الدَّعوةِ.[52]

وفي مناسبة أُخرى يُبرزُ الجانب البَراغْماتيّ الذّي يجبُ على فرنسا أنْ تقوم به تجاه الجزائريّين، وبكلِّ ذكاءٍ يُسمّيهمَا: (أُمَّتَيْنِ)، فيقول: " إنَّ الأمَّة الجزائريَّة أُمَّةٌ ضَعيفةٌ ومتأخِّرةٌ، فترى من ضرورتِها الحيويَّة أنْ تكون في كنَف أُمَّةٍ قويَّةٍ عادلةٍ مُتمدِّنةٍ، لتُرقِّيها في سُلَّم المدنيّة والعِمران، وترى هذا في فرنسا التّي رَبطتْها بها روابطُ المصلحة والوداد، فنحن نخدمُ للتَّفاهم بين الأمَّتَين ".[53]

---

48 - للمزيد ينظر: يوسف القرضاويّ. في فقه الأولويّات دراسة جديدة في ضوء القرآن والسّنة، مرجع سابق، ص9.

49 - محمّد الغزالي. كيف نتعامل مع القرآن؟ مرجع سابق، ص120.

50 - مسعود فلوسي. الإمام عبد الحميد بن باديس، لمحات من حياته وأعماله وجوانب من فكره وجهاده، مرجع سابق، ص105.

51 - عمّار الطّالبيّ. آثار ابن باديس، مج2، ج2، مرجع سابق، ص12.

52 - مسعود فلوسي. الإمام عبد الحميد بن باديس، لمحات من حياته وأعماله وجوانب من فكره وجهاده، المرجع السّابق، ص105.

53 - آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين. ج5، (ط1، دار البعث للطّباعة والنّشر، من مطبوعات وزارة الشّؤون الدّينية: الجزائر، 1412هـ/1991م)، ص174.

وهكذا وبالنَّظر إلى وعْيِه السُّنيّ في بُعْد اعتبار سُنّة التّدرّج ومراعاة المآل النّتائج، طرح البديل لفرنسا بأسلوبٍ هادئٍ، وبنظرةٍ عميقةٍ، مُتأسِّيًا بأساليب الرُّسل (عليهم السّلام)، ومُطالبًا فرنسا العُظمى والقويَّةَ أن تُساعد الجزائريّين من أجل إنقاضِهم من مُستنقع جَهلِهم وتخلُّفِهم، وليس بتذويبِهم في ثقافتِهَا، مُوهمًا إيَّاها أنَّ ذلك لا يخدمُ مصالِحَها، إذا بقي الجزائريُّون يُعانون في غياهِب الجهل وأقبية التَّخلُّف.

ولنْ يكون لمراعاة سُنَّة التدرُّج معنًى دون مُراعاة المرونة، وهي سنَّةُ الله تعالى في عالَمَيْ الخَلق والأمر، وهذا ما انتهجَه الإمام في مشروعه، فلقد سلك في دعوته مسلكًا يشهدُ بحِكمتِه، ورجاحة عقلِه، وسدادِ فكرتِه، منهجٌ كفيلٌ بتحقيقِ تلك الأهداف بحكمةِ الحكماءِ، لا بطيشِ السُّفهاءِ، وبرويَّةِ العقلاءِ، لا بتهوُّرِ الحمقى، من دون أن يضحِّي بمبادئه وثوابته، فيوضِّح ذلك بقوله في أحد شعاراته المشهورة: " تستطيعُ الظُّروفُ تَكْيِيفَنَا، ولكِنَّها لنْ تستطيعَ أنْ تَقْهرنَا ".[54]

أمَّا مبادئه الأساسيَّة التّي يؤمنُ بها، وأهدافه الرَّئيسة التّي يدعو إليها ويُجاهد من أجلها، فهو لا يتزحزح عنها قدْر أنملة، فيصرخ في وجه مَن يريد أن يقف في طريق تحقيق مبادئه قائلا: " من رام أن يَحُولَ بيننا وبين فكرتنا التّي نؤمنُ بها، ويؤمن بها الصَّادقون، فقد حاول عبثًا قلبَ الحقائق، ونحن لذلك لا نتزحزح عن تلك الفكرة قيد شعرةٍ، مهما طغى سيلُ الكوارث، على أمَّةٍ لها ما للشَّعب الجزائريّ من الصّفات المرغوب فيها، الكامنة كمونَ النَّار في الكهرباء ".[55]

2/ المقاصد قبل الوسائل والظَّواهر:

ومن وعي الإمام السُّنيّ أنَّه كان يُقدّم المقاصدَ على الوسائل والظَّواهر، وكان ينطلق في دعوته وإصلاحِه من معرفةٍ عموديَّةٍ وأُفقيَّةٍ لِمُجتمعهِ وعاداتِه وأعرافِه، ممَّا يستدعي دراسةً واعيةً وشاملةً للأمور التّي قد تُؤثّر في جريان عملهِ الإصلاحيّ، على أنَّ النَّظر والعبرةَ بالمقاصد، ولا قيمةَ للظَّواهر والوسائل إذا لم تتحقَّق مقاصدُها.

ولذلك ارتأى أولويّة التَّربية قبل التُّراب؛ أيْ تحريرُ العُقول قبل تحرير الأرض، فلقد وجَّه أغلب جهده الإصلاحيّ إلى تربية النَّشْءِ وإصلاح حالهِ، وقَبل مُواجهة فرنسا بالسّلاح والحديد، كان من الواجب أنْ يُواجِهَا بسلاح العلم، وذلك بمُحاربة الجهل والضَّلالات؛ إذ بناء الإنسان وتكوينُه يسبق كُلَّ دعوة إلى تحرير الأرض التّي يقفُ عليها ذلك الإنسان، ولأنَّ هدفَه البَّعيد هو تغيّير الواقع بكلّ سِلبيّاته، " والطَّريق إلى ذلك هو تحرير عقول الجزائريّين من الجمود والخرافات والجهل واللَّامبالاة ".[56] وفي هذا السّياق يقول

54 - تركي رابح. الشّيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلاميّ والتّربية في الجزائر، (ط5، المؤسّسة الوطنيّة للاتّصال النّشر والإشهار: الجزائر، 1422هـ/2001م)، ص251.

55 - المرجع نفسه، ص252.

56 - المرجع نفسه، ص205.

رفيق دربه الإمام الإبراهيميّ: " وإنّ تحرير العقول لَأَساسٌ لتحرير الأبدان، وأصلٌ له، ومُحالٌ أن يتحرّر بدنٌ يحملُ عقلًا عَبْدًا ".[57]

فالحريَّةُ عندهُ هي الحياةُ؛ لذا نجده يؤكّد على الحريَّة، والتّي يعتبرها عين الحياة، ولا يتمُّ الوجود الإنسانيّ إلّا بها، فيقول: " حقُّ كلِّ إنسانٍ في الحريَّة كحقِّه في الحياة، ومقدارُ ما عندَه من حياةٍ هو مقدارُ ما عندَه من حريَّةٍ، المتعدَّى عليه في شيءٍ من حُريَّته، المتعدَّى عليه في شيءٍ من حياته ".[58]

ويُشبِّه حاجة الإنسان للحريَّة كي يعيش، كحاجة النَّبات للمنبت والهواء كي ينمو، فيقول: " لا ينمو النَّبات ويزهُو إلَّا إذا كان في نطاقٍ واسعٍ من الفضاء والهواء والمنبت، يجد فيه الحريَّة للنموّ والازدهار، وبقدر ما يضيقُ نطاقهُ يكون ما يصيبهُ من اليُبسِ والذُّبولِ. هكذا الإنسان تنمُو مداركُه وتتجمَّدُ، وتقْوى إرادتُه وتضعفُ، وتحسُنُ أعمالُه وتقبُحُ، بقدرِ ما يكون لهُ من الحريَّة الصَّحيحة في الحياة".[59] ثمّ يربط ربطًا وثيقًا بين الحريَّة والعقل، ويجعل من أعظم أسباب الجهل الاستبدادَ والاستعبادَ، فيقول: " أمَّا الشُّعوب المستعبَدة، فإنَّ طولَ استعبادِها يُفسدُ عليها فِطرتَها، ويُميتُ شعورَها، حتىَّ تجهلَ ما لا يجهلُه أحدٌ، وتزهدَ فيما لا يزهَدُ فيه مخلوقٌ ".[60]

3/ الإسلامُ بينَ الذَاتيّ والوِراثيّ:

ولأنّه كان يهتمُّ بالعقل ومسالك النّظر اهتمامًا بالغًا، وبالقراءة في الكتابين: كتاب الله المسطور (القرآن)، وكتابه المنظور (الكون)، واستيعاب ما فيهما من السُّنن الإلهيّة؛ إذ نجده يعقد مقارنةً بين الإسلام الذاتيّ والإسلام الوراثيّ، وأيُّهما ينهض بالأمم؟ فيقول: " لكنَّ هذا الإسلامَ الوراثيَّ لا يُمكن أنْ ينْهض بالأُمم، لأنَّ الأُمم لا تنْهض إلَّا بعد تنبُّهِ أفكارها، وتفتُّحِ أنظارها، والإسلام الوراثيّ مبنيٌّ على الجمود والتَّقليد، فلَا فِكرَ فيه ولَا نظرَ. أمَّا الإسلام الذَّاتيّ، فهو إسلامُ مَن يفهمُ قواعد الإسلام، ويدركُ محاسِنَ الإسلام في عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه وأعماله (...) هذا الإسلامُ الذَّاتيُّ هو الذّي أَمَرنا اللهُ بهِ في مثل قوله: **[قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرادَى ثُمَّ تَتَفكَّرُوا]** فبالتَّفكير في آيات الله السَّمعيّة وآياته الكَونيّة، وبناءِ الأقوال والأعمال والأحكام على الفكر، تنْهضُ الأُممُ فتَسْتَثْمِرُ ما في السَّماوات وما في الأرض، وتُشيدُ صُروحَ المدَنيّة والعِمران ".[61]

4/ النَّظرُ الكليُّ في معالجةِ المُشكلاتِ:

إنَّ المتتبّعَ لمسيرةِ ابن باديس التّربويّة والإصلاحيّة، يُدرك تمامَ الإدراك أنَّه كان صاحبَ نظرٍ كُليٍّ في مُعالجة المشكلات التّي كانت الأمَّةُ الجزائريّة تُعاني منها، رغم تشعُّب وصعوبة وتعقُّد هذه المشكلات، فهو

---

57 - محمّد البشير الإبراهيمي. آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيميّ، جمع وتقديم نجلهُ: أحمد طالب الإبراهيميّ، ج3، (ط1، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1997م)، ص56.

58 - تركي رابح. الشّيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلاميّ والتّربية في الجزائر، المرجع السّابق، ص11.

59 - المرجع السّابق، ص182.

60 - المرجع نفسه، ص183.

61 - عبد الحميد بن باديس. الشّهاب، مج14، (ط1، بيروت: دار الغرب الإسلاميّ، 1421هـ/2001م)، ص 120- 121.

مُصلِحٌ ذو بعدٍ سُنيّ في تصوُّره لكلّ جُزئيات المشكلة، ومن ثَمَّ مُعالجتُها بمرونة وتدرُّج وحِكمة، إنَّه رجلٌ عظيمٌ، كما وصَفهُ رفيقُ دربِه بقوله: " وعبدُ الحميد بنُ باديس عظيمٌ بأكمل ما تُعطيه هذه الكلمةُ من معنًى؛ فهو عظيمٌ في عِلمِه، عظيمٌ في أعمالِه، عظيمٌ في بيانِه وقوَّةِ حُجَّتِه، عظيمٌ في تربيّتِه وتثْقِيفِه لجِيلٍ كاملٍ، عظيمٌ في مواقفِه من المألُوفِ الذّي صيَّرهُ السُّكوتُ دينًا (...) وإذا كان منْ خوارق العادات في العُظماء - أنَّهم يَبنُونَ من الضَّعف قُوَّةً، ويُخرجونَ من العدمِ وجودًا، ويُنْشِئونَ من الموت حياةً - فكلُّ ذلك فعَلَ عبد الحميد بن باديس منَ الأمَّة الجزائريّة ".[62]

وفي جهادهِ يقول أيضًا: " وحَسْبُه منَ المجدِ التَّاريخيّ أنَّه أحيَا أمَّةً تعاقَبتْ عليها الأحداثُ والغِيَرُ، ودِينًا لَابَسَتْهُ المحدثاتُ والبِدعُ، ولِسانًا أكَلتهُ الرَّطاناتُ الأجنبيَّةُ، وتاريخًا غطَّى عليه النِّسيانُ، ومجدًا أَضَاعهُ ورثَةُ السُّوءِ، وفضائلَ قَتلتْهَا رذائلُ الغَربِ ".[63]

5/ إصلاحُ المناهجِ التَّعليميَّةِ:

لقد أدرك ابن باديس بثاقبِ بصيرتِه، وعَميقِ نظرِه، أنَّ هناك دَاءً وخَللاً كبيرًا في مناهج التَّعليم، وهذا الأمر لم يكنْ مقصورًا على المدارس التّي أنشأتْها فرنسا، بلْ حتَّى مدارسُ التَّعليم الشَّرعيّ الحرَّةُ التّي أُصِيبتْ بالعَجْز والعُقم، وتحوَّلت مِن إدراك المقاصد وتحقيق الأهداف، إلى اسْتنزافِ الطَّاقة في علوم الآلةِ (الوسائل) دون اسْتخدامِها، فَأضَاعت بذلكَ الأجْرَ والعُمرَ، وانْعَزلتْ عن ضمير الأمَّة وبَعْثِ نَهضَتِها، وسَمَحتْ بِامتِدادِ الآخَر.[64]

لذلك كان من واجب المصلِحينَ إصلاحُ العقول قبل إصلاح الأعمال، وتغيّيرُ الأفهامِ قبل تشريع الأحكام، حتَّى تتهيَّأَ العقليّةُ العامَّةُ لقَبول دين الله تعالَى على أنَّهُ نظامٌ شاملٌ وواقعيٌّ، وإنسانيٌّ ومُتوازنٌ،[65] كما أنّ ابن باديس قد استردَّ رسالةَ المسجد في التَّعليم الجماهيريّ العامّ، أو الثَّقافةِ الجماهيريَّةِ، واعتبرَ تعليم الجماهير في المسجد هو صِنْوُ الصَّلاة، من حيثُ أثره وانْعكاساته على الواقع الاجتماعيّ والتّربويّ،[66] وخاصّة إذا علمنا ما كان الاستعمار الفرنسيّ يفعلهُ من أجل ارتهان الثَّقافة والتَّربية الإسلاميّة.

رابعًا: نماذج من الوعي السُّنيّ في تفسير ابن باديس للقرآن الكريم

لقد قصد الإمام ابن باديس اختيارَه لتدريس آياتِ الأحكام، وذلك من أجل ربْط الطَّلبة بمصادر الشَّريعة مباشرةً، وتكوينِ الملكة الفقهيَّة الاجتهاديَّة في أذهانِهم، مُعتمدين على الأدلَّة، وبَعيدينَ عن الاكتفاء بالتَّقليد والتعصُّب المذهبيّ غيرِ المستندِ إلى دليلٍ. ففي معرض تفسيره المبدع لقوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِيَ اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا**﴾ **[الفرقان:30]**. يقول: " وبيَّنَ القرآن أصولَ

62 - محمّد البشير الإبراهيمي. عيون البصائر، (لا.ط، شركة دار الأمة: الجزائر، 2007م)، ص684 - 685.

63 - المرجع السّابق، ص632.

64 - ينظر: المرجع نفسه، ص85.

65 - ينظر: نور الدين بن مختار الخادميّ. الاجتهاد المقاصديّ حجيته،ضوابطه، مجالاته، ج2، (ط1، وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة: قطر، كتاب الأمّة. العدد: 66، السّنة: 18. رجب 1419هـ/أكتوبر - نوفمبر1998م)، ص162.

66 - عمر عبيد حسنة، الاجتهاد سبيل الوراثة الحضارية، (ط1، المكتب الإسلاميّ: لبنان، 1419هـ/1998م)، ص86.

الأحكام، وأُمّهاتِ مسائل الحلال والحرام، ووجوهَ النَّظر والاعتبار مع بيان حِكَمِ الأحْكَام وفوائدِها في الصَّالح الخاصِ والعامّ ".[67]

وها هو يُسْفِر عن وعيٍّ سُننيٍّ عميقٍ، أثناء مدحِه للعامل بالقرآن الكريم، مُستدلًّا بحديث أبي موسى الأشعريّ τ عن النَّبيّ ρ أنّه قال: " **المُؤْمِنُ الذِّي يَقْرَأُ القُرْآنَ وَيعْمَلُ بِهِ، كَالأُتْرُجَّةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ** ".[68] فيقول: "والعمل بالقرآن يقتضي فهمَ معانِيه، وكذلك كان المخاطَبون بهذا الحديث، فإنَّ القرآن بِلُغتِهم نَزل، ولهذا لم يقلْ في الحديث: المُؤْمنُ الذّي يقرأُ القرآن ويفهمُه ويعملُ بهِ، لأنَّ ذِكرَ الفهْمِ لأُولئكَ المُخاطَبِين حَشْوٌ، تتحاشى عنه البلاغةُ النَّبويَّةُ. فيَا أيُّها المؤمنون تطلَّبوا معَانيَ ما تقرؤونَ، واعمَلُوا بما تفهمونَ كي تَكونوا أُتْرُجَّةً ".[69] ولن يكون ذلك إلّا باستيعاب ما فيه من أسرارٍ وسُننٍ ونواميس.

وفيما يلي إيرادٌ لبعض النّماذج التّي تُسْفِرُ لنا عن وعي ابن باديس للسّنن الإلهيّة:

*** النّموذج الأوّل:**

في مَعرض تفسيره لقوله تعالى:﴿**مَنْ كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا**﴾**[الإسراء: 18]**. يَظهر جليًّا بعدُ وَعْيِه السُّننيّ، ببيانِ المصلحة الشَّرعية المعتبرة، والأحكام الشَّرعية المعلَّلة بفوائدِها، فيقول: " وقد أفادت هذه الآيات كلّها أنّ الأسباب الكونيّة التّي وضعها الله تعالى في هذه الحياة وسائل لمسبَّباتها موصلةٌ - بإذن الله تعالى - مَن تمسّك بها إلى ما جُعلت وسيلة إليه، بمقتضى أمر الله وتقديره، وسُنَنِه في نظام هذه الحياة والكون، ولو كان ذلك المتمسّك بها لا يُؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا يُصدّق المرسلين ".[70]

فابن باديس بهذا الوعي يؤكّد أنّ السُّنن الإلهيّة لا تُحابي أحدًا؛ ومن مقتضى ذلك أنّ: " مَن أهملَ تلك الأسباب الكونيّة التّقديريّة الإلهيّة ولم يأخذ بها لم ينل مُسبَّباتها ولو كان من المؤمنين، وهذا معلومٌ مُشاهَدٌ من تاريخ البشر في ماضيهم وحاضرهم ".[71] وبناءً على ذلك رأى أنّ أقسام العباد أربعة؛ وهي:[72]

1- مؤمنٌ آخذٌ بالأسباب الدّنيويّة، فهذا سعيدٌ في الدّنيا والآخرة.

2- ودهريٌّ تاركٌ لها، فهذا شقيٌّ فيهما.

---

67 - السّعيد رحماني. مقاصد الشّريعة الإسلاميّة عند ابن باديس، مجلة رسالة المسجد. تصدرها وزارة الشّؤون الدّينيّة والأوقاف. السّنة الرّابعة، العدد: 2، ذو القعدة 1427هـ/ نوفمبر 2006م)، ص18 - 19.

68 - العسقلانيّ، بن حجر العسقلانيّ (773هـ.852هـ). فتح الباري شرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمّد ابن إسماعيل البخاريّ، ج9، (لا.ط، دار المعرفة: بيروت، د.ت)، كتاب: الأطعمة، باب: ذكر الطعام، رقم: 5427، ص555.

69 - علي محمّد محمّد الصَّلابيّ. كفاح الشّعب الجزائريّ ضدّ الاحتلال الفرنسيّ، وسيرة الزعيم عبد الحميد ابن باديس، مرجع سابق، ص256

70 - عبد الحميد بن باديس. تفسير ابن باديس أو مجالس التّذكير من كلام الحكيم الخبير، مج1، اعتنى به وخرّج أحاديثه وآثاره: أبو عبد الرحمن محمود، (ط1،دار الرّشيد للكتاب والقرآن الكريم: الجزائر، 1430هـ/2009م)،ص162.

71- المرجع نفسه، مج1، ص162.

72- ينظر: المرجع نفسه، مج1، ص163.

3- ومؤمنٌ تاركٌ للأسباب، فهذا شقيٌّ في الدّنيا، وينجو - بعد المؤاخذة على التّرك - في الآخرة.

4- ودهريٌّ آخذٌ بالأسباب الدّنيويّة، فهذا سعيدٌ في الدّنيا، ويكون في الآخرة من الهالكين.

مُعلِّلًا أنّ سبب تأخّر المسلمين ليس راجعًا إلى إيمانهم، بل بسبب تركهم الأخذ بالأسباب، " الذّي هو من ضعف إيمانهم. ولم يتقدّم غيرُهم بِعدَمِ إيمانهم بل بأخذهم بأسباب التّقدّم في الحياة (...) فلا لَوْمَ إذًا إلَّا عليهم في كلّ ما يُصِيبُهم، وربُّك يقضي بالحقّ وهو الفتّاح العليم ".[73]

فلقد كان يُؤمن بأنَّ بناءَ الإنسان، رغم صُعوبة المهمَّة أجدى وأنفعُ للأُمَّة من تأليف الكُتُب. وهو القائل: " شُغِلْنا بتأليفِ الرّجال عن تأليفِ الكُتبِ ".[74] وأنَّ غرْس الأفكار البنَّاءة في نفوس النَّاشئة هو إيقاظٌ لها، وإيقادٌ لِسِراجٍ يُنيرُ دُروبَ الدُّجى للسَّالكين.

وهذا المقصدُ صَاغهُ الشَّيخ محمَّد البَّشيرُ الإبراهيميُّ بقوله: " كانت الخُطَّةُ التّي اتَّفقنا عليها أنَا وابنُ باديس في اجتماعنا بالمدينة المنوَّرة في تربية النَّشءِ، هي ألَّا نَتوسَّع له في العلم، وإنَّما نُربّيه على فكرةٍ صحيحةٍ، ولو مع علمٍ قليلٍ، فتمَّتْ لنا هذه التَّجربة في الجيش الذّي أعدَدناه من تلامذتِنَا ".[75]

*** النّموذج الثّاني:**

في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَنَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا**﴾**[الإسراء: 20]**. وبعد أن ربط هذه الآية بما سبقها - أي: الإسراء: 18-، وبيّن أنّ حالة الفريقين في الآخرة متباينةٌ؛ إذ فريقٌ في النّعيم وفريقٌ في الجحيم. وأمّا عن حالهم في الدّنيا فإنّهم - كما قال: - " قد أُعطوا من نِعم الحياة ومُكِّنُوا من أسبابها، فقد تساوُوا في الخِلقة البشريّة، وفي العقل المميِّز المفكِّر، وفي الإرادة الحرّة (...) فاختار كلٌّ بعقلِه - وهو حرٌّ في إرادته حريّةً لا يمكن لأحدٍ أن يُكابِرَ فيها - ما اختار لنفسِه. وحجّة الله بما تقدّم قائمةٌ عليه. وبقَوا بعد ذلك الاختيار الذّي اختلفت به منازلهم عند الله فيما أعدّ لهم يوم لقائه سواء، في تلك النِّعم الدّنيويّة والتّمكّن من أسباب بقائها والتّقدّم فيها. لا فرق في ذلك بين بَرٍّ وفاجرٍ، ومؤمنٍ وكافرٍ ".[76]

وأنّ عدلَ الله تعالى يقتضي أن لا يمنع كافرًا لكفرِه، أو فاجرًا لفجوره من نِعَمِ هذه الحياة وأسبابها، مُضيفًا أنّ " تركيب الآية يُفيدُ أنّ عطاءَ الرَّبِّ لا يُمنع ولا يجوز أن يُمنع، لأنّ من مقتضى رُبوبيّته دوام عطائِه ومددِه لعموم خَلقِه، بِعلمِه وحِكمتِه. وقدَّم المفعول وهو (كُلًّا) ردًّا على من يعتقد أنّ الله تعالى يمدُّ بعضًا دون بعضٍ ".[77] فأسباب الحياة والعمران والتّحَضُّر والرُقيّ مبذولة للخلق على السّواءِ. فكلٌّ من

---

73 - المرجع السّابق، مج1، ص163.

74- حسن عبد الرحمان سلوادي. عبد الحميد بن باديس مُفسِّرا، (لا.ط، المؤسسة الوطنية للكتاب: الجزائر، 1988م)، ص63.

75- تركي رابح، الشّيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلاميّ والتّربيّة في الجزائر. مرجع سابق، ص177.

76- عبد الحميد بن باديس. تفسير ابن باديس، مج1، مرجع سابق، ص175.

77- المرجع نفسه، مج1، ص175.

تمسّك بسببٍ أو وسيلةٍ، بلغَ - بإذن الله تعالى - إلى مُسَبَّبِهِ أو مقصدِه، سواء أكان برًّا أو فاجرًا، مؤمنًا أو كافرًا.

لِيَصِلَ إلى تقرير أنّ ما أفادته هذه الآية الكريمة هو أمرٌ مُشَاهَدٌ في تاريخ المسلمين قديمًا وحديثًا؛ فعندما أخذوا بأسباب المدنيّة كما يأمرهم قرآنهم، تقدّموا وسادُوا العَالَمَ. في حين أنّهم تخلّفوا وتأخّروا عندما أهملوا الأخذ بتلك الأسباب، فخسروا دنياهُم، بل عُوقِبوا بما نالَهُم اليوم من الذُلّ والانحطاط، ولن يعود لهم مجدهم إلّا بالعودة إلى امتثال أمر ربّهم في الأخذ بتلك الأسباب.[78] مُعتبرًا أنّ هذه الآية هي من أنجع الدّواء لفتنة المسلم المتأخّر بغيره المتقدّم؛ وذلك " لما فيها من بيان أنّ ذلك المسلم ما تأخّر بسبب إسلامِه، وأنّ غيرَهُ ما تقدّم بعدم إسلامِه، وأنّ السّبب في التّقدّم والتّأخّر هو التّمسّكُ والتّركُ للأسباب ".[79]

*** النّموذج الثّالث:**

وفي ثنايا تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ والفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا ۞ وَلَا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولًا**﴾**[الإسراء: 36 - 37]**. وتحت عنوان: " العلم والأخلاق "؛ وبعد أن ذكر أنّ العقل مِيزةُ الإنسان وأداة علمِهِ، وأنّه " بقدر ما تكثر معلومات الإنسان ويصحُّ إدراكهُ لحقائقها ولِنِسَبِهَا ويستقيم تنظيمه لها، تكثر اكتشافاته واستنباطاته في عَالَمَي المحسوس والمعقول، وقِسْمَي العلوم والآداب ".[80] بينما تقلُّ معلوماتهُ كلّما قلّت اكتشافاتهُ.

مُعتبرًا حالة الإهمال للنّظر في المعلومات حتّى وإن كانت كثيرةً - أي: المعلومات -، مُبقيةً لصاحبها في مرتبة الجمود إلى أن تتلاشى من ذهنه تلك المعلومات المُهمَلة؛ مُرجِعًا زوالها من الحافظة تدريجيًّا إلى عدم تعاهد الإنسان لها بالنّظر، ورابطًا ذلك بالسّنن الإلهيّة الثّابتة والحاكمة بأنّ هذا هو " طَورُ الجمودِ الذّي يُصيبُ الأممَ المتعلّمة في أيّامها الأخيرة عندما تتوافر الأسباب العمرانيّة القاضية بسنّة الله بسقوطها ".[81]

فإذا كان إدراكُ الإنسان للحقائق أو نِسَبِهَا غيرَ صحيحٍ، أو كان تنظيمُه لها غيرَ مُستقيمٍ، كان ما توصّل إليه بالنّظر - لا محالة - خطأً في خطأٍ، وفسادًا في فسادٍ. وأنّه لا ينشأ عن هَذيْنِ المَرَضَيْنِ إلّا ضَرّرٌ في المحسوس، وضلالٌ في المعقول.

مُوَثّقًا هذا الأمر بالسُّنن الإلهيّة التّي تتحكّم بمصير الأمّة التّي يرتفع منها العلم ويفشو الجهلُ؛ قائلًا: " وهذا هو طورُ انحطاطِ الأمم الانحطاط التّامّ، وذلك عندما يرتفع منها العلمُ ويفشو الجهلُ وتنتشر فيها الفوضى بأنواعها، فتتّخذ رؤُوسًا جُهَّالًا لأمُورِ دينِها وأُمُورِ دُنيَاها، فيقودونها بغير علمٍ، فيَضِلُّون ويُضِلُّون، ويَهلِكون ويُهلَكون، ويُفسِدون ولا يُصلحون ".[82]

---

78 - ينظر: المرجع السّابق، مج1، ص178.

79 - المرجع نفسه، مج1، ص178.

80 - المرجع نفسه، مج1، ص264.

81 - المرجع نفسه، مج1، ص265.

82 - المرجع نفسه، مج1، ص265.

*** النّموذج الرّابع:**

وتحت عنوان: (الطَورُ الأخيرُ لكلِّ أمّةٍ وعاقِبَتُهُ)، وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ القِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ مَسْطُورًا**﴾**[الإسراء: 58]**؛ يُبرهن لنا ابن باديس على مدى وعْيِه السُّننيّ، وبأسلوبٍ بديعٍ، مذكِّرًا بسُنّة التّداول والأجل؛ حيث يُشبِّهُ ما يقعُ للأُمَم مثل ما يقع للأفراد في أطوار أعمارها الثّلاثة، قائلًا: " الأممُ كالأفراد، تمرُّ عليها ثلاثةُ أطوارٍ: طَورُ الشّباب، وطَورُ الكهولة، وطَورُ الهرم. فيشمل الطَّور الأوّلُ نشأتها، إلى استجماعها قوّتها ونشاطها مُستعدّةً للكفاح والتّقدّم في ميدان الحياة. ويشملُ الطَّورُ الثّاني ابتداء أخذها في التّقدّم والانتشار وسَعَة النُّفُوذ وقوّة السّلطان، إلى استكمالها قوّتها وبلوغها غاية ما كان لها أن تبلُغه من ذلك بما كان فيها من مواهب. وما كان لها من استعدادٍ، وما لديها من أسبابٍ. ويشمل الطّورُ الثّالث ابتداءها في التّقهقر والضّعف والانحلال، إلى أن يحلّ بها الفناءُ والاضمحلالُ. إمّا بانقراضِها من عَالَم الوجود، وإمّا باندراسِها من عَالَم السّيادة والاستقلالِ. وما من أمّةٍ إلّا ويجري عليها هذا القانون العامّ وإن اختلفت أطوارُها في الطُّول والقِصَر كما تختلفُ الأعمارُ ".[83]

وهو في ذلك يتبع نظريّة ابن خلدون الذّي قرّر في مُقدَّمَتِه: " الفصلُ الرّابعَ عَشَرَ: في أنّ الدّولة لها أعمارٌ طبيعيّةٌ كما للأشخاص (...) فهذا العمرُ للدّولةِ بمثابةِ عمُر الشّخص من التَّزيُّدِ إلى سِنّ الوُقُوفِ ثمَّ إلى سِنّ الرُّجُوعِ ".[84] ومن هنا - كما قال مالك بن نبيّ -: " تكون نهاية (دورةٍ) وهجرة (حضارةٍ) إلى بُقعةٍ أُخرى، تبدأ فيها دورة جديدة، طبقًا لتركيبٍ عضويٍّ تاريخيٍّ جديدٍ ".[85]

فابن باديس يعتبر ذلك سُنّةً كونيّةً أجرى الله تعالى عليها حياةَ الأُمم في هذه الدّنيا، وكثيرًا ما نصَّ عليها الكتاب العزيزُ، كما في قوله تعالى:﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾**[الأعراف: 34]**. ومُنوّهًا إلى أنّ الطّور الثّالث والأخير للأمم هو الذّي نبّه إليه القرآن الكريم أكثر من الطَّوْرَين الأوّل والثّاني، زيادةً في التّحذير منه، والتّخويف من سوءِ عاقبتِه، ولتدارك الأمر بالإقلاع عن الظّلم، والانتهاء عن الفساد، وإصلاح الحال؛ ذلك لأنّه " هو الطّور الذّي ينتشرُ فيه الفسادُ، ويعظمُ فيه الظّلمُ، وينتهي فيه الإعذارُ للأمّة، ويحلُّ فيه أجلُها، فينزلُ بها ما تستحقُّهُ من هلاكٍ أو عذابٍ ".[86]

---

83 - المرجع السّابق، مج1، ص304.

84 - ابن خلدون، عبد الرّحمن. مُقَدَّمة ابن خلدون، ج1، حقّق نصوصه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه: عبد الله محمّد الدّرويش، (ط1، دار يعرب: دمشق، 1425هـ/2004م)، ص335 - 336.

85 - مالك بن نبيّ. وجهة العالم الإسلاميّ، ترجمة: عبد الصّبور شاهين، (ط5، دار الفكر، دمشق، 1406هـ/1986م)، ص31.

86- عبد الحميد بن باديس. تفسير ابن باديس، مج1، مرجع سابق، ص309.

وفي إرشادٍ من ابن باديس لأمّة الإسلام، واستنهاضٍ منه لِهِمَّتِهَا يقول: " قد ربطَ الله بين الأسباب ومُسبَّباتها، خلْقًا وقَدرًا، بمشِيئتِه وحِكمتِه، لِنَهتدِي بالأسباب إلى مُسبَّباتها، ونَجْتنِبَها باجتناب أسبابِها (...) فإنّ بطلانَ السّبب يقتضي بطلانَ المسبَّب ".[87]

إنّ هذه النّماذج المختارة أسفَرَتْ لكلّ ذي عَيْنَيْنِ عن مدى وعي الإمام ابن باديس بالسّنن الإلهيّةِ، واهتمامه بهذا النّوع من الفِقه الحضاريّ، وذلك لِيَقِينِه بأنّ الوعي السُّننيّ كفيلٌ برسم المنهج الصّحيح لكلّ أمّةٍ، وللسّير دون اعوجاج في ركب الحضارة، بل لضمان التّقدّم والسّيادة فيه، واجتناب أسباب الذّلّ والتّقهقر، وتفادي دواعي التّدهور والذّوبان، وسدّ ذرائع الانحطاط والانهيار والزّوال.

خاتمـــة:

ختامًا، وبعد هذه الجولة القصيرة في بيان تجليّات الوعي السُّننيّ عند ابن باديس في مشروعه الإصلاحيّ، نصل إلى إيراد جملةٍ من النّتائج والتّوصيات، والتّي نوجزها فيا يلي:

أوّلًا/ النّتائج:

1/ الحضور المتميّز للسّنن الإلهيّة في مشروع ابن باديس الإصلاحيّ.

2/ اهتمام ابن باديس بفقه السّنن الإلهيّة تخطيطًا وتنفيذًا.

3/ توظيف ابن باديس للوعي السّننيّ في تفسيره للقرآن الكريم.

4/ استحضار فقه السّنن الإلهيّة في أيّ مشروع إصلاحيّ لضمان ترشيده وفاعليّته.

ثانيًا/ التّوصيّات:

1/ ضرورة الاهتمام بالفقه السّننيّ لأهميّته في حياة الأمم والمجتمعات.

2/ العمل أكثر على بحث وكشف تجليّات هذا الوعي السُّننيّ في مشروع ابن باديس الإصلاحيّ.

3/ إثراء البحث في موضوع الوعي السّننيّ وعلاقته بمشاريع الإصلاح في الرّسائل الأكاديميّة.

4/ إدراج هذا النّوع من الفقه في مناهج التّربية والتّعليم، وخاصّة في الطّور الثّانويّ. قصد العمل على صناعة المفكّر الحضاريّ الرّاشد.

87- المرجع نفسه، مج1، ص310.

المصادروالمراجع:

*** القرآن الكريم.**

1/ ابن تيميّة. ***جامع الرّسائل، المجموعة الأولى***، تحقيق: محمّد رشاد سالم، ط2، دار المدني: جدّة، 1405ه /1984م.

2/ ابن تيميّة. ***مجموع الفتاوى***، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمّد بن قاسم، لا.ط، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشّريف: المملكة العربيّة السّعوديّة، 1425ه/2004م.

3/ ابن خلدون، عبد الرّحمن. ***مُقَدَّمة ابن خلدون***، حقّق نصوصه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه: عبد الله محمّد الدّرويش، ط1، دار يعرب: دمشق، 1425ه/2004م.

4/ ابن فارس. ***معجم مقاييس اللّغة***، تحقيق: عبد السلام محمّد هارون، لا.ط، دار الفكر، د.م، د.ت.

5/ ابن منظور. **لسان العرب**، ط1، المطبعة الميريّة، مصر، 1303ه .

6/ أبو بكر الرّازي. ***مختار الصّحاح***. ضبط وتخريج وتعليق: مصطفى ديب البغا، ط4، دار الهدى، عين مليلة: الجزائر، 1990م.

7/ ***آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين***. ط1، دار البعث للطّباعة والنّشر، من مطبوعات وزارة الشّؤون الدّينية: الجزائر، 1412ه/1991م.

8/ أحمد محمّد كنعان. ***أزمتنا الحضاريّة في ضوء سُنّة الله في الخلق***، تقديم: عمر عبيد حسنة، لا.ط، أمّتي للنّشر الالكترونيّ، د.م، د.ت.

9/ تركي رابح. ***الشّيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلاميّ والتّربية في الجزائر***، ط5، المؤسّسة الوطنيّة للاتّصال النّشر والإشهار: الجزائر، 1422ه/2001م.

10/ الجرجانيّ. ***التّعريفات***، اعتنى به: مصطفى أبو يعقوب، ط1، مؤسّسة الحسنى، الدّار البيضاء: المغرب، 1427ه/2006م.

11/ حسن بن صالح الحميد. ***سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم***، ط2، دار الفضيلة: الرّياض، 1432ه/2011م.

12/ حسن عبد الرحمان سلوادي. ***عبد الحميد بن باديس مُفسِّرا***، لا.ط، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب: الجزائر، 1988م.

13/ الرّاغب الأصفهاني. ***مفردات ألفاظ القرآن***، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط4، دار القلم - الدار الشّامية، د.م، 1430ه/2009م.

14/ الطّاهر ابن عاشور. ***تفسير التّحرير والتّنوير***، لا.ط، الدّار التّونسيّة للنّشر: تونس، 1984م.

15/ طه جابر العلوانيّ. ***إشكاليّة التّعامل مع السُّنّة النّبويّة***، ط1، المعهد العالميّ للفكر الإسلاميّ، الولايات المتّحدة الأمريكيّة، 1435ه /2014م.

16/ عبد الحميد بن باديس. ***تفسير ابن باديس أو مجالس التّذكير من كلام الحكيم الخبير***، اعتنى به وخرّج أحاديثه وآثاره: أبو عبد الرحمن محمود، ط1،دار الرّشيد للكتاب والقرآن الكريم: الجزائر، 1430هـ/2009م.

17/ عبد الكريم بكّار. ***تجديد الوعي***، ط1، دار القلم، دمشق، 1421هـ/2000م.

18/ عبد الكريم بوصفصاف. ***الفكر العربيّ الحديث والمعاصر محمّد عبده وعبد الحميد بن باديس نموذجًا***، لا.ط، دار الهدى: الجزائر،د.ت.

19/ عبد الكريم زيدان. ***السّنن الإلهيّة في الأمم والجماعات والأفراد في الشّريعة الإسلاميّة***، ط1، مؤسّسة الرّسالة، د.م، 1413هـ/1993م.

20/ العسقلانيّ بن حجر. ***فتح الباري شرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمّد بن إسماعيل البخاريّ***، لا.ط، دار المعرفة: بيروت، د.ت.

21/ علي محمّد محمّد الصلّابي. ***كفاح الشّعب الجزائري ضدّ الاحتلال الفرنسيّ، وسيرة الزّعيم عبد الحميد بن باديس***، ط1، دار ابن كثير: لبنان، 1437هـ/2016م.

22/ عمّار الطّالبيّ. ***آثار ابن باديس***، ط3، الشّركة الجزائريّة: الجزائر، 1417هـ/1997م.

23/ عمر عبيد حسنة. ***الاجتهاد سبيل الوراثة الحضارية***، ط1، المكتب الإسلاميّ: لبنان، 1419هـ/ 1998م.

24/ مالك بن نبيّ. ***وجهة العالم الإسلاميّ***، ترجمة: عبد الصّبور شاهين، ط5، دار الفكر، دمشق، 1406هـ/ 1986م.

25/ ***مجلّة الشّهاب***. ط1، بيروت: دار الغرب الإسلاميّ، 1421هـ/2001م.

26/ ***مجلة رسالة المسجد***. تصدرها وزارة الشّؤون الدّينيّة والأوقاف. السّنة الرّابعة، العدد:2، ذو القعدة 1427هـ/نوفمبر 2006م.

27/ محمّد البشير الإبراهيميّ. ***آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيميّ***، جمع وتقديم نجلهُ: أحمد طالب الإبراهيميّ، ط1، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1997م.

28/ محمّد البشير الإبراهيميّ. ***عيون البصائر***، لا.ط، شركة دار الأمة: الجزائر، 2007م.

29/ محمّد الغزاليّ. ***المحاور الخمسة للقرآن الكريم***، لا.ط، دار الشّروق، د.م، د.ت.

30/ محمّد الغزاليّ. ***كيف نتعامل مع القرآن***؟ ط7، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، يوليو 2005م.

31/ محمّد حسن حسن جبل. ***المعجم الاشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم***، ط1، مكتبة الآداب: القاهرة، 2010م.

32/ محمّد رشيد رضا. ***تفسير المنار***، ط3، دار المنار: مصر، 1367هـ.

33/ محمّد عبده. ***الإسلام بين العلم والمدنيّة***، لا.ط، مؤسّسة هنداوي: المملكة المتّحدة، 2010م.

34/ محمّد فؤاد عبد الباقي. ***المعجم المفهرس للقرآن الكريم***، لا.ط، دار الكتب المصريّة، 1364هـ.

35/ مسعود فلوسي. ***الإمام عبد الحميد بن باديس لمحات من حياته وأعماله وجوانب من فكره وجهاده***، ط1،الجزائر: دار قرطبة للنشر والتوزيع: الجزائر،1426هـ/2006م.
36/ مصطفى محمد حميداتو. ***عبد الحميد بن باديس وجهوده التربويّة***. تقديم: عمر عبيد حسنة، ط1، كتاب الأمّة، وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة، قطر، السّنة:17، العدد:7، 1418هـ/1997م.
37/ نور الدّين بن مختار الخادميّ. ***الاجتهاد المقاصديّ حجيته،ضوابطه، مجالاته***، ط1، وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة: قطر، كتاب الأمّة. العدد: 66، السّنة: 18. رجب 1419هـ/أكتوبر - نوفمبر1998م.
38/ يوسف القرضاويّ. ***في فقه الأولويّات دراسة جديدة في ضوء القرآن والسّنة***، ط1، مؤسّسة الرّسالة: لبنان، 1421هـ/2000م.
39/ https://www.aljazeera.net.